◆ أهمية تبلبالة في تجارة المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط

د. صالح بن قربة

Tabalbala et son rôle dans le commerce entre le Maghreb et le Soudan au Moyen-Age

Dr. Salah BEN GUERBA

Cette recherche aborde le rôle de la vile de Tabalbala dans le commerce entre le Maghreb et le Soudan au Moyen-Age. Ce commerce concernait plusieurs marchandises dont les plus importantes étaient l'or, le sel, les esclaves, les oeufs d'autruche. La recherche montre l'usage répandu de monnaie en papier et en métal en se basant sur des sources historiques et archéologiques. La recherche pose aussi la problématique du rôle émergent des centres urbains à l'époque almoravide.

مما لا شك فيه أن دراسة الصحراء وأثرها الإيجابي في تاريخ العلاقات الثقافية والاقتصادية بين إفريقية الغربية وبلاد المغرب في العصور الوسطى مازالت تطرح إشكاليات تاريخية بين الباحثين والمؤرخين المحدثين والمهتمين بهذا الحقل من الدراسات الحضارية بشكل عام(1)، وموضوع مدينة تبلبالة في التجارة الصحراوية على الرغم مما قيل فيه، ما يزال مشكلة تحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب والدراسة التحليلية المقارنة.

ومن المعروف أنه لم تظهر حتى يومنا هذا دراسة جادة متخصصة حولها، ومن المؤسف حقا أن الذين عنوا بدراسة تاريخ المنطقة وتتبعوا انتشار الإسلام في أنحائها، لم يهتموا بتسليط الضوء على مكانتها السوقية والتجارية منذ ظهورها على مسرح التاريخ الإسلامي في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي، باستثناء بعض الإشارات لم تكن في أغلبها مستقاة من المصادر العربية، فكان بعضها سريعا موجزا

وبعضها اهتم بإظهار الخصائص المحلية وإهمال العامل الجوهري لمجدها التاريخي والحضاري في الإسلام، ومعنى هذا أن تاريخ هذه المنطقة لم يدون بعد.

من المعلوم أن فهم تاريخ منطقة تبلبالة في التجارة المغربية السودانية رغم ندرة المعلومات التاريخية والميدانية حولها، لن يتم دون الاهتمام بتطور التجارة الصحراوية وشبكة طرقها خلال العصور القديمة(2)، فقد كانت للعلاقات والصلات التجارية بين السودان وبلاد المغرب روابط تاريخية ترجع إلى عصور قديمة، كان هناك اتصال لا تعرف ماداه تشير عليه الرسوم الصخرية بالأطلس والصحراء، ففي كلتا الجهتين عثر الباحثون على صور للعربات والأبقار والحيوانات والحلي وأنواع الأسلحة، وكانت العربات تشق طريقها من البحر الأبيض المتوسط إلى السودان عبر نفس الطريق الذي سلكته القوافل من العصر التاريخي المعروف وقد سلكت العربات طريقين محورين من الشمال إلى الجنوب مستعملة الخيول والأبقار: الطريق الأول كان يبدأ من سرتا إلى غاور عبر الهقار وجبال اليفوراس(3) والطريق الثاني ينطلق من جنوب المغرب إلى النيجر الأوسط عند بلدة كوندام، وهناك من الباحثين من يشك في أن هذا الطريق كان يتعدى نهر النيجر نحو المحيط الأطلسي(4) وحاول كثير من المؤرخين إرجاع تلك العلاقات إلى العهد القرطاجي بالمغرب (814-146 ق.م). فقد كانت قوافل قرطاجنية تقطع الصحراء لجلب الذهب والعبيد والعاج، مقابل المنسوجات والنحاس والأدوات المصنعة، وما من شك في أنهم وصلوا إلى مصب نهر السينغال وتعاملوا هناك مع السكان، ولاحظ الباحث (Mauny) أن التجارة في تلك المواد واسعة ولا يمكن تصور أن الفيلة أو النعام في الصحراء المغربية وذهب سوس(5)، يمكن أن تقوم بها وحدها، ويخلص إلى الرأي بأن التجارة كانت موجودة بالفعل بين المغرب القرطاجي وبين إفريقية المغربية(6).

ومهما يكن من أمر فإن الأوصاف القيمة التي تركها المؤرخون القدامى تدل على وجود صلات بين المغرب وغرب إفريقيا ولا سيما في الميدان التجاري، وظل هذا التبادل قائما في العصرين اليوناني والروماني ثم البيزنطي(7).

ومما يدل على حقيقة العلاقات التجارية الرومانية بإفريقيا الغربية، المعثورات التي اكتشفها المنقبون في مدينة تغازى ضمن طبقات محلية عميقة وهي عبارة عن قطعة نقدية معدنية وايكونات استعملها الرومان وقد خربت كلها في بداية العهد الروماني بمدينة (Nuzemberg) كما عثر أيضا في جهات أخرى متفرقة من شاطئ نهر النيجر على نقود فضية رومانية ضربت في بلاد (Gaule) في فترات متقطعة حوالي 58 قبل الميلاد و 2 قبل الميلاد و 11 بعد الميلاد(8).

وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، تولى سكانه تأمين أسواق السودان الكبرى كما عملوا على تنظيم المواصلات مع هذه البلاد على أساس تجاري أولا، سرعان ما توطد عبر فترات تاريخية تالية حاملا معه مجموعة من التنظيمات الاجتماعية والدينية والحضارية(9).

والواقع أنه مهما قيل عن قدم العلاقات التجارية بين بلاد السودان وإفريقية جنوب الصحراء لأنه يصعب التسليم بوجود تجارة منتظمة ومنظمة بين المنطقتين قبل القرن الثامن الميلادي(10).

مع ملاحظة أن أهم الطرق التجارية كانت حتى تلك الفترة تتجه باتجاه شمال – شرق – وجنوب – غرب، منطلقة من الواحات المصرية ومن جنوب إفريقية نحو النيجر، وسيشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الأول من القرن العاشر الميلادي تكييف المبادلات التجارية بين منطقتين، وستوضع الأسس الدائمة لها وهي متمثلة في مبادلات الملح بالذهب مفتاح التجارة الصحراوية لعدة قرون تالية(11)، وظهرت هذه السياسة على ما يبدو مع الفاطميين الذين سيستغلون بانتظام علاقاتهم التجارية للحصول على الذهب الضروري لتمويل مشاريعهم السياسية، ولما كان الطريق ورقلة – توات – السودان بيد الخوارج أعداء الفاطميين الألداء، فإن الفاطميين سيعملون على الاتصال بالسودان الغربي عبر سجلماسة نحو أودغشت والنيجر أمام التجارة الصحراوية(12).

أما الطريق الذي يربط مصر بالسودان الغربي عبر الصحراء الجنوبية(13)، فقد تم التخلي عنه أواسط القرن العاشر الميلادي لأسباب أمنية وأخرى طبيعية كما يفهم من كلام ابن حقول(14): «...فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفرة وقصدهم العدو أيضا فأهلكهم غير دفعة فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة».

وحتى أواسط القرن الحادس عشر الميلادي، ورغم التوازن الإقليمي النسبي بين المحور الغربي: (سجلماسة – درعة – أودغست)(15) والمحور الشرقي: (الجريد – ورقلة – تدمكة – أودغست)، فإن الميزان سيميل لصالح المحور الغربي الذي كان بيد قبائل زناتة، والذي سيستفيد من وجود عنصر حاسم في التجارة الصحراوية، وهو الملح فيفضل السبخات المحلية الموجودة جنوب المغرب باتجاه غانة (ممالح تغازى وايجيل)، وهكذا لم تلبث منطقة المغرب أن انتزعت مركز الصدارة من المحاور القديمة التي كانت تنتهي عند الساحل المصري ولا سيما طرابلس ونواحيها(16)، وهذا الحدث كانت له

بالإضافة إلى انعكاساته الاقتصادية الكبرى دلالته التاريخية المتمثلة في تعزيز الانفصال السياسي للمغرب الإسلامي عن المشرق باستقلال اقتصادي خاص بتجارة القوافل مع إفريقية جنوب الصحراء(17).

ومع الغزو الهلالي وبسببه أصبحت محاور الجزء الشرقي المغربي في حالة فوضى، ذلك أن الهجرة الهلالية قد «أصابت في الصميم شبكة الطرق الجنوبية بكل جلاء ووضوح معتمدا على شهادات تاريخية متعددة وعلى رأسها شهادات مستمدة من الفتاوى الفقهية»(18). ونتيجة لهذه الحالة، تحولت التجارة الصحراوية شيئا فشيئا نحو الوجهة الغربية ساعدت على تدعيم الإمكانيات المادية لحكام المنطقة بالإضافة إلى تقوية قدراتهم على جميع المستويات(19).

ومهما يكن من شيء، فقد ساعد ظهور المرابطين على بدء مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام ببلاد المغرب، والحدث الأكثر أهمية هو التوحيد السياسي بين المغرب والأندلس حيث تحول إلى واقع ملموس خلال قرن ونصف (483-626 هـ 1090-1228م)(20)، وفي مجال التجارة قد سعوا جاهدين إلى تأمين الحركة التجارية ودفعها، وقد تحولت أغمات إلى عاصمة للتجارة مع السودان، فكان تجارها من هوارة يذهبون بالقوافل إلى غانا وما يجاورها وهي محملة بالنحاس ونسيج الصوف والأوصاف والأحجار الكريمة(21) والعطور والأدوات الحديدية ويعدون بالذهب ومنتجات السودان والتاجر الواحد كان يمتلك ما بين سبعين ومائة جمل كلها محملة بالبضائع(22).

ويمكن اعتبار الفترة المرابطية مرحلة انتقال من الاعتماد على التجارة والرعي وبيع الذهب إلى طور الاستخدام الواسع للمعادن، وقد استفادت منطقة تبلبالة في هذه الفترة من استغلال الأعمال التجارية وبالتالي تحولت من محطة للقوافل العابرة للصحراء الكبرى إلى مركز تجاري كبير يتحكم في تجارة العبور من المغرب إلى السودان وبالعكس ولما كان اهتمام المرابطين بغانة منصبا على النواحي الدينية والسياسية والتجارية، فإن الموحدين عملوا على ضمان سير التجارة، وبالتالي فإن هيمنة الموحدين على بلدان المغرب الإسلامي قد أعطت نفسا جديدا للمحاور الشرقية التي ظلت مع ذلك دون مستوى المحور الغربي(23).

وعلى الرغم من ذلك فإن الطريق التجاري قد استمر في نشاطه الأول، بدليل أن الدولة حاولت جاهدة على تأمين السير العادي لهذا الشريان الحيوي(24)، يدل على ذلك رواية القسطلاني الذي دخل على عامل الموحدين بسجلماسة أبي الربيع سليمان بن عبد المؤمن، فوجد بين يديه رؤوس جماعة من قطاع الطرق الصحراوية أدينوا باعتراض سبل القوافل فيما بين سجلماسة ونهر النيجر(25).

وقد عثر في المغرب على نسخة من رسالة وجهها سليمان المذكور إلى ملك مالي يعيب عليه احتباسه للتجار الوافدين إلى مملكته، ومن مضمون الرسالة يتضح أن الملك الزنجي لم يكن معتنقا للدين الإسلامي، وأن الموحدين لم يكونوا يعتبرون السودان داخلا تحت سلطانهم، والأهم من هذا أن الموحدين كانوا يتطلعون إلى إقامة تعاون تجاوري يقوم على تبادل المنافع(26).

ويتضح مما تقدم، أن الموحدين رغم الصراع القوي على السلطة في مجموع أقطار السودان الغربي، لم يكن لهم مطامع سياسية أو التفكير في الغزو(27)، ولكنهم لم يدخروا جهدا في توفير أسباب الأمن وحماية القوافل من هجمات الأعراب وبناء الأسواق، كما مهد الموحدون الطرق في جميع أنحاء دولتهم، ببناء الجسور وتشييد المنازل وتجهيز الصهاريج توفيرا للماء(28).

هذا فضلا عن تجهيز الأسواق على أبواب الصحراء وقد وصف ابن خلدون مدينة تمنطيط الواقعة جنوب شرق سجلماسة التي كانت مفتاح التجارة إلى السودان في عهد المرابطين(29)، وقد اهتم بها الموحدون أيضا حيث لعبت دورا تجاريا ملحوظا خصوصا مع غاو شرقا وولايته غربا (.. تنمطيط، وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاز التجار المترددين من الغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه وبينه وبين ثغر مالي المسمى غاو المفازة المجهولة لا يهتدي فيها الشبل ولا يمر الوارد إلا بالدليل...) ومع ناجعتهم يخرج فلول التجار والأمصار والتلول حتى يحطوا بتمنطيط ثم يندرفون منها إلى بلد السودان(30).

على أن إحدى المستجدات الهامة التي عرفها المغرب الموحدي ترتبط بالتجارة المسيحية إذ سيمثل استقرار التجار النصارى في بعض نقاط الساحل المتوسطي، والأطلسي حدثا جوهريا في العلاقات المغربية المسيحية الغربية، وتدريجيا سيتم أبعاد المغرب عن التجارة في البحر الأبيض المتوسط(31) وستنهض هذه التجارة على كاهل التجارة الأوربيين الذين بدأوا يفرضون تفوقهم العسكري والتجاري في البحر المتوسط(32).

وسوف تلعب الصراعات الداخلية في المغرب مع بداية تفكك الموحدين، دورها في الانقسامات السياسية، التي ستنعكس على شبكة الطرق التجارية الصحراوية التي عرفت تغييرات كثيرة ظهرت واضحة في التحول التدريجي نحو الجانب الشرقي، يدل على هذا التحول أن الطريق الغربي الذي كان يخترق المغرب الأقصى من السوس إلى الريف أصبح مضطربا خلال القرن 13 م(33).

ويبدو أن الخريطة التجارية قد تغيرت في هذه الفترة خصوصا فيما يتعلق بالمحاور التي كانت تنتهي عند الموانئ الكبرى بالمغرب مثل هنين وبجاية وتونس وطرابلس أو الإسكندرية حيث بدأت تستعيد نشاطها التجاري، نتيجة لانحطاط المحاور المغربية بالمغرب الأقصى، وتعددت التيارات التجارية بتعدد حجم القوى السياسية المتصارعة من أجل السيطرة عليها، وقد مهد ضعف الموحدين الطريق أمام منافسة شديدة بين المرينيين والزيانيين والحفصيين لتوسيع نفوذهم تمهيدا للاستيلاء على التجارة مع الصحراء(34).

وعمل المرينيون على مساعدة أبناء عمومتهم من الشيخات وإخوانهم المرينيين وعرب المعقل في تمنطيط على التحكم في طرق القوافل، وذلك بعد أن وصل السلطان المريني يوسف الناصر بن يعقوب إلى هذه المناطق وقاد حملة من اثني عشر ألف مقاتل إلى حدود السودان 686هـ / 1287م(35).

ومن جهة أخرى نجد بلدان السودان الغربي عرفت بدورها تطورات عميقة أثرت في موقع المغرب على خارطة المبادلات التجارية فسلاطين مالي الذين كانوا قد نجحوا في تحقيق الوحدة السياسية للسودان الغربي، قد بدءوا يعملون على الانفلات من قبضة الاحتكار الغربي، وبالتالي سينتهجون سياسة تجارية نشيطة تهدف إلى دائرة زبائنهم كما أن التجار السودانيين بدءوا يترددون على واحات المغرب ومدنه مشاركين في عملية تسويق سلعهم وتزودهم بالملح والنحاس والمنتوجات المصنعة، وهم بنشاطهم التجاري هذا عملوا على تثبيت التوزيع الجديد للمحاور التجارية لغير صالح المغرب الأقصى من جهة، وبهدف إضعاف الوساطة المغربية القديمة وسيعمل حكام مالي على تشجيع استقرار التجار المصريين ببلادهم(36) ولعب المغرب الأوسط (الجزائر) دورا رئيسيا في التجارة الصحراوية مع بلاد السودان الغربي ويبدو أن توطيد هذه العلاقات نما وتطور مع المرابطين الذين عملوا على إقامة علاقة جديدة بين منطقة غرب بلاد المغرب والصحراء حيث مهدوا الطريق أمام المغاربة في التعرف على السودان الغربي، نتج عنه أحداث تبادل تجاري منتظم بين المناطق الغربية لبلاد المغرب بما فيها مدينة تلمسان وبين السودان والتي أصبحت بلاد المغرب الأوسط في مقدمة البلدان متاجرة مع السودان الغربي لا سيما في عهد الموحدين(37) نظرا لموقع المدينة الجغرافي الممتاز ووفرة الطرق والمسالك القصيرة بين المنطقتين ولكن يبدو أن هذه الوضعية لن تستمر طويلا. إذ بعد سقوط دولة الموحدين في القرن السابع الهجري (668هـ) الثالث عشر الميلادي حدث تغير في الميزان التجاري، إذ حلت المبادلات الخاصة محل المبادلات الرسمية في حماية التجارة التي ظلت نشطة عبر الصحراء الكبرى، على الرغم من المشاكل التي تعترض سبيلها(38).

وفهم ملوك بني عبد الواد قيمة التبادل التجاري وما يدره على الدولة من أرباح خصوصا الذهب الذي يقوي الدولة اقتصاديا وازدهارها اجتماعيا، فعملوا على تشجيع الحركة التجارية وحمايتها، ولا أدل على تشجيع الحركة التجارية وحمايتها، من محاولة الأمير يغمراسين بن زيان (633-681هـ)(39) الاستيلاء على مدينة سجلماسة مفتاح تجارة الصحراء، ومن أجل تحقيق هذا الهدف دخل في صراع مع المرينيين بغية إحكام السيطرة عليها سنة 662-1224م غير أن السلطان أبا يعقوب بن عبد الحق المريني استطاع استرجاعها للسيادة المرينية سنة 673-1274م.

وظهرت آثار هذه التجارة واضحة في ثراء تلمسان والتلمسانيين لدرجة أصبح ملوكها يمنحون القروض لغيرهم، وتأسست شركات تجارية لأصحابها مثال: شركة الاخوة المقري وهم أجداد المؤرخ المعروف (المقري) صاحب كتاب (نفح الطيب) تعامل الاخوة المقري مباشرة مع ملوك مالي الذين كانوا يشجعونهم على ممارسة التجارة في بلادهم، وتبادلوا الرسائل مع السلطان منسي موسى وكان يطلب منهم تزويده بكل ما يحتاج إليه من سلع(40)، ولا شك أن هؤلاء الوسطاء كانوا همزة وصل بين سلاطين تلمسان وملوك السودان في الشؤون التجارية، كما اشتهرت أسر أخرى تلمسانية بالتجارة مع بلاد السودان مثل عائلة العقباني وعائلة المرازقة كما مارس التجار بالمغرب الأوسط عبيد الله من المعقل وبني عامر من زغبة وكان دور عبد الله يقومون برحلة في شتاء كل عام من بلادهم الواقعة (قبلة جنوب تلمسان)(41) فيتوجهون إلى قصور توات وخاصة تمنطيط وتبلبالة ومنها إلى أرض السودان.

تواصلت الأعمال التجارية بين تلمسان وبلاد السودان إلى القرن الخامس عشر الميلادي ثم بدأت تتكمش بسبب ازدهار المماليك السودانية، حتى أن سلطان بلاد برنو بعث برسالة إلى علماء توات يشكو فيها من قلة تردد التجار على بلاده ويفسر الباحث (Mauny) هذا النقص في عدد التجار بين توات وبلاد السودان باضطهاد التوارق لليهود الذين سيطروا على التجارة في المنطقة ومنعهم من المرور(42).

1 - تأسيس مدينة تبلبالة

لا شك أن البحث في تاريخ تأسيس هذه المدينة صعب لعدة أسباب نذكر من بينها سببين رئيسيين:

- أولهما غموض تاريخ المدينة منذ ظهورها على مسرح الحياة الصحراوية في العصور الوسطى، ويزداد غموضا كلما حاولنا الكشف عن نشأتها ومراحل تطورها

العمراني ومدى مساهمتها في الحياة السياسية وتأثرها بالأحداث العامة للدول التي تعاقبت على حكم البلاد ومسايرتها للتطورات الثقافية والاقتصادية في بلاد المغرب.

- وثانيهما، قلة المصادر والمراجع التي تناولت تاريخها من جهة، وانعدام الأبحاث والدراسات الحديثة وإجراء المسوحات والحفائر من جهة ثانية، وحتى إن وجدت الدراسات والأبحاث الأجنبية التي صدرت عن الصحراء وبلاد السودان، فلم تهتم بالمصادر العربية ولم يرجع أصحابها إليها فجاءت ناقصة، والواقع أنه ليس بين أيدينا وثائق تاريخية يمكن الاستناد إليها، وأن ما وصلنا لا يعدو مجرد إشارات عابرة، وقد تضمنت معارف غير دقيقة أحيانا مما يجعل الباحث في حيرة من هذه المسألة.

إن أقدم الإشارات التاريخية عن مدينة تبلبالة ترجع إلى القرن الثالث الهجري في عهد دولة بني مدار فقد أورد لسان الدين بن الخطيب خبرا يفيد أنها من تأسيس الأمير محمد بن ميمون بن تقية الذي تولى حكم الدولة حيث (ظهر وغزا بلاد القبلة وملك مدينة تافلبات (تابلبات) وتوفي في شهر صفر سنة سبعين ومائتين(43) يفهم من هذا النص أن المدينة أقدم من هذا التاريخ بمعنى أنها ترجع إلى فترات قديمة جدا ولكن لما كانت رواية بن الخطيب هذه مبهمة لا تلقي أضواء كاشفة عن هذه المسألة فإنه من السابق لأوانه أن نصدر حكما نهائيا في المسألة لأن الأمر يحتاج إلى تحريات أثرية والقيام بأسبار ومجسات في المنطقة وقراءة جديدة في المخطوطات والوثائق في آن واحد لا سيما وأن تاريخ هذه المنطقة لم يكتب بعد بطريقة علمية ومنهجية تستند إلى المصادر التاريخية الأثرية.

أما حسن الوزان الذي قدم لنا وصفا مختصرا عن المدينة، فإنه لم يشر إلى تاريخ بنائها إطلاقا لكن حسب أحد الباحثين المحدثين فإن تأسيس تبلبالة يرجع في الأساس إلى صراع المرابطين مع قبائل زناتة حيث خرج هؤلاء في جيش ضخم ونزلوا وادي درعة فلما أحس أمير مغراوة بالخطر يقترب من دياره خرج في اثني عشر ألفا من قومه(44) للقاء المرابطين ولكنه لم يستطيع أن يصمد أمامهم فقتل مسعود وتفرق شمل الزناتيين، وفتح طريق وادي درعة أمام المرابطين ولكن يظهر أن الزناتيين لم يستسلموا لليأس فقد كانوا يدركون أن هذه الحرب كانت حرب حياة أو موت لو غلبوا على أمرهم وعلت كلمة البرانس(45) وتم لهم التفوق والسيطرة على المسالك الجنوبية إلى المغرب فاعتصموا بمدينة سجلماسة ودفعوا عنها دفاعا مستميتا ولكن المرابطين اقتحموها بالسيف وأوقعوا بهم وفرقوا شملهم وتمت لهم الغلبة وعقد لهم لواء النصر(46).

ولكن زناتة لم تصبر على الهزيمة فما كادت بعض جموع المرابطين تعود إلى الصحراء للقضاء على ثورة الزنوج(47) حتى هب الزناتيون وأعملوا في المرابطين السيف

وقتلوا حاميتهم بسجلماسة وكادت انتصارات المرابطين تضيع هباء لولا أن زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين حرضهم على الحرب مرة أخرى وأخذ يحمسهم على الجهاد فعادوا أقوى مما كانوا عليه عاقدين العزم على كبح جماح الزناتيين وهكذا لم تصمد زناتة الجنوب أمام زحف المرابطين وانتهى الأمر بهزيمتها شر هزيمة ووطد المرابطون أقدامهم في إقليم الواحات(48) وأسسوا مدينة تبلبالة واتخذوها قاعدة للمرحلة التالية من مراحل فتح المغرب والظاهر أن تأسيس مدينة تبلبالة جاء نتيجة لعوامل اقتصادية ذلك أن زناتة كانت تحتكر تجارة المغرب وتهتم منذ البداية بطرق القوافل وبالتجارة الذاهبة إلى الجنوب(49)، فلما أصبحت سجلماسة وغيرها من واحات الصحراء بمثابة موانئ لهذه التجارة وكانت زناتة هذه تحتكر سوق الأندلس لعلاقتها الوثيقة بالأمويين(50).

أما صنهاجة فكانت تكتفي بمجرد المشاركة في نقل هذه المتاجر من أسواق الجنوب إلى أسواق الشمال(51) ولكن حدث أنه بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس واضطراب شؤونها أن فقدت زناتة سوق الأندلس فاضطرت أن تفرض على التجارة وعلى القوافل رسوما جائرة تعويضا للخسارة التي أصابتها(52) فاضطر التجار إلى عدم تسويق بضائعهم بالمغرب الأقصى وانعكس هذا الوضع على المواد التي كانت صنهاجة تستولي عليها لذلك كان منطقيا أن تتجه صنهاجة الجنوب (المرابطون) إلى إقليم الواحات لانتزاعه من زناتة حتى تتحكم في مصير التجارة الصحراوية. وهناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرناه وقد لعبت دورا رئيسيا في إنشاء المعسكرات والمدن ونعني بذلك أن القبائل البدوية إذا خرجت غازية أو مهاجرة سارت برجالها ونسائها وأطفالها بقصد الاستقرار والاستيطان في البلاد المفتوحة(53) لذلك لا نستبعد بأن المرابطين (الملثمين) خرجوا إلى إقليم الواحات على هذه الصورة. وتأسيسا على ذلك فإن هذه الأسر المهاجرة قد استقرت في البلاد التي كانت تعمرها زناتة من قبل وعليه فعن هذه المعسكرات التي كان المرابطون يعمدون إلى إنشائها مثل تبلبالة إنما كان بقصد العناية بهذه الأسر المستقرة ويعزز رأينا هذا ما ذكره أحد المؤرخين من أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة يرغبها في الاستقرار في البلاد التي فتحها ويغريها بالهجرة نحو الشمال فأخذت هذه القبائل تتسابق في الرحيل إلى المغرب في موجات متلاحقة للاستيطان(54) يضاف إلى ما سبق أن من بين الأسباب التي أدت إلى تأسيس مدينة تبلبالة هي أن مواطن المرابطين كانت بعيدة في جنوب الصحراء وأن وسائل الاتصال بين القبائل الغازية وبين ديارها الأصلية صعبة جدا فكان على أمير المرابطين أن يؤمن أن هذه القبائل الفاتحة على نفسها وبالتالي يحافظ على

الإبقاء على البلاد المفتوحة بأية وسيلة ويحول بين القبائل المغلوبة على أمرها ومنعها من الاشتباك مع المرابطين(55) فاضطر إلى إنشاء هذه المعسكرات لحماية الفتوحات الجديدة يدل على هذه السياسة أنه لما فتح إقليم سجلماسة أسس المرابطون مدينة تبلبالة ولقد أجمع الباحثون الغربيون من أمثال De La Chapelle أن مدينة تبلبالة(56) من مآثر المرابطين وأن تاريخ بنائها يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخهم وحضارتهم إلا أنهم يختلفون في اسم المؤسس الحقيقي لها هل هو أبو بكر بن عمر اللمتوني أم يوسف بن تاشفين؟ ليس مهما أن نعرف أيهما كان المؤسس أو الآمر بالبناء بل الأهم من ذلك كيف تحولت هذه المحطة من معسكر للجيش إلى مركز تجاري يتحكم في تجارة العبور؟ ويصبح فيما بعد مدينة قائمة بذاتها على غرار المدن الصحراوية.

2 - موقع المدينة الجغرافي وأهميته

يحتل موقع مدينة تبلبالة أهمية خاصة من الناحية الطبوغرافية ساعد على نموها وازدهار التجارة بها حيث تلتقي عندها الطرق التي تسلكها القوافل التجارية التي تربط شمال بلاد المغرب بجنوب الصحراء وبلاد السودان(57).

تقع تبلبالة في الصحراء جنوب حاسي تاشنغيت، تتوسط العرقين الكبيرين: العرق العطشان شرقا والعرق الراوي غربا، فكان لهذه الخصائص الطبيعية أثرها في جعل مسارات الطرق التجارية نحو الشمال وجنوبه، تمر عبر هذه المدينة أو بالقرب منها تؤدي وظيفتها كاملة خلال الفترة المرابطية حيث اكتسبت هذه المدينة الصحراوية مكانة ممتازة من الناحية السوقية وتاريخ العلاقات التجارية بين المغربين الأوسط والأقصى وغرب إفريقيا في العصور الوسطى، وبالإضافة إلى ذلك نجد أن موقع تبلبالة من الناحية الجغرافية كان يتوسط أهم المراكز الحضارية التي لعبت دورا مرموقا في تنشيط الحركة التجارية بين الشمال والجنوب، فتبلبالة يحدها من الناحية الغربية فجيج وسجلماسة ومن جهة الشرق توات وتمنطيط وجنوبا تغازي وتاوديني، أما بالنسبة لموقع المدينة الفلكي لم يحض باهتمامات الجغرافيين من أمثال ابن سعيد المغربي وياقوت الحموي والحميري وغيرهم، على الرغم من أهميتها التجارية والعمرانية وهكذا رغم اهتمام الرحالة والجغرافيين بزيارة معظم البلدان والأمكنة التي تحدثوا عنها، فإنهم أهملوا زيارة هذه المنطقة والتحدث عنها وإفادتنا بمعلومات عن أحوال المعيشة وعادات أهلها وتقاليدها ورجالها وعلمائها وأدبائها. ولم نجد اسم (تبلبالة) إلا في نصوص القرنين الثامن والعاشر الهجريين الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين، ومعظم ما كتب عن (تبلبالة)

نجده عند حسن الوزان المعروف بالأسد الإفريقي، فقد قدم لنا وصفا هاما ودقيقا لهذه المدينة وسكانها وبناء دورها وأقواتها وثمارها وحيواناتها ووحوشها وعاداتها وتقاليدها وما زال هذا الوصف الموجز من النصوص النادرة عن المنطقة، وفي القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، عقد القلقشندي فصلا هاما عن بلاد الصحراء رتب فيه ما قاله من سبقه من المؤلفين من أمثال العمري وابن سعيد وأبي الفداء والحميري وغيرهم(58).

تظهر قيمة عمل القلقشندي فيما جمعه من نصوص الجغرافيين الذين لم تصل إلينا مؤلفاتهم، وعلى رغم أهمية هذه النصوص فإننا لا نجد بين ثنياها ما يفيد لا من قريب ولا من بعيد عن أخبار منطقة تبلبالة، أما النصوص الأساسية كما سبق أن ألمحنا لمعرفة أخبار هذه المدينة والصحراء والسودان عامة نجدها عند حسن الوزان في الوقت الراهن، ونأمل في المستقبل القريب إن شاء اللّه العثور على نصوص إضافية جديدة تلقي أضواء كاشفة على ماضي المنطقة بشكل عام ومدينة تبلبالة بشكل خاص. فالصحراء الجزائرية تزخر بمئات المخطوطات الأثرية القيمة التي ما زلنا نجهل موضوعاتها ومضامينها التاريخية والدينية والعلمية، ونسعى إن شاء اللّه إلى القيام بدراسة ميدانية لها إذا توفرت لدينا الإمكانيات المادية ووجدنا استجابة وقبولا من السلطات المحلية والمصالح المعنية بحماية وحفظ هذا التراث والعمل على دراسته ونشره قبل ضياعه.

أفرد حسن الوزان لمدينة (تبلبالة) وصفا موجزا أشار فيه إلى اسمها وموقعها وعمرانها وأحوال سكانها، كما ذكرنا قبل قليل فهو يسميها بـ(تبلبيت) ويصنفها ضمن إقليم سجلماسة حيث يقول(59): «هو مكان مأهول وسط صحراء نوميديا، على بعد نحو مائتي ميل (أي 200) ميل من الأطلس، ومائة ميل جنوب سجلماسة، وهناك ثلاثة قصور عامرة بالسكان(60) وأرضها صالحة للفلاحة مغروسة بالنخيل، الماء فيها قليل، وكذا اللحم وتؤكل فيها النعام والوعول التي تصطاد، ورغم أن القوم يتجرون مع بلاد السودان فإنهم فقراء لكونهم خاضعين للأعراب(61)». والملاحظ أن اسم (تبلبالة) ورد ذكره عند حسن الوزان في موضعين آخرين من كتابه السالف الذكر في الجزء الأول ضمن أقسام نوميديا، من مدن المغرب الأقصى وهي مرتبة حسب موقعها من الغرب «تشيت، ودان، أفران، أخا، درعة، تبلبلة، فكيك، فركلة، سجلماسة، بني كوى، توت، تسابت، تيكورارين، مزاب، توكرت، ورقلة(62)». ويشير إليها أيضا في معرض كلامه عن القبائل العربية التي أقامت بالصحراء «يقيم العمارنة، وهم فرع من نوي منصور في الصحاري المجاورة لسجلماسة وينتقلون في صحراء ليبيا إلى إيكيدي ويتقاضون الخراج من أهل سجلماسة وتدعة وتبلبالت ودرعة(63)».

ومما سبق، يتضح أن مدينة (تبلبالة) رغم أهميتها التاريخية والحضارية لم تحض باهتمام المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب المسلمين، على غرار المدن الصحراوية الأخرى المعاصرة لها من أمثال: اغمات، وسجلماسة وتمنطيط وأودغشت والقو وتبموكتو وغيرها حيث كانت لها نفس الأهمية في هذا المجال الحيوي، ويبدو أن سبب عزوف هؤلاء المؤلفين يرجع في الأساس إلى أن «تبلبالة» لم ترق إلى المستوى تلك المدن من حيث قدمها في النشاط التجاري هذا فضلا عن عدم شهرتها لديهم كمركز تجاري معروف. إذ يرتبط ظهورها بميلاد حركة المرابطين في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي الذين جعلوا منها قاعدة عسكرية لانطلاق جيوشهم باتجاه بلاد المغرب الأقصى وجنوب الصحراء ولهذا فإن ما نعرفه عن تاريخ هذه المدينة وإسهاماتها الحضارية وتأثيرها في غرب إفريقيا، لا يعدو مجرد إشارات مقتضبة وردت عرضا في بعض المؤلفات القديمة والحديثة(64) التي أشرنا إليها عند تعرضنا لمناقشة تاريخ تأسيس المدينة ونشأتها واختلاف الآراء والأقوال حولها.

3 - أهمية تبلبالة في التجارة بين المغرب والسودان الغربي(65)

إذا كانت مدينة تبلبالة من أهم موانئ الصحراء تنقل إليها التجارة الآتية من المغرب إلى السودان، وكذلك التجارة الآتية من السودان إلى المغرب ومنه إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط وقد وضحت أهميتها كنقطة ارتكاز بين السودان والمغرب حيث كانت ترد إليها القوافل المحملة بالسلع السودانية والمغربية مما أدى إلى انتعاش التجارة على الأقل في فترة ازدهارها ورغم كل ذلك فليس من الهين الإلمام بجميع أوجه تجارة تبلبالة مع المناطق المعروفة تاريخيا والتي سبق أن أشرنا إليها، لأن كتب المسالك والمماليك تكتفي ببسط بعض ملامح تجارتها مع الأصقاع التي تعاملت معها ومع ذلك فهي عاجزة عن تقييم دور تبلبالة في التجارة الصحراوية بشكل خاص، ومن هنا تبرز صعوبة طرق مثل هذه الموضوعات الاقتصادية لقلة المعطيات التاريخية والجغرافية وهكذا فالإشكالية القائمة الآن تكمن في التعرف على ملامح تجارة أهل مدينة تبلبالة وتحديد خصائصها لا سيما في السودان، انطلاقا من أنهم كانوا «يتاجرون مع بلاد السودان»(66) وأن المحاور الرئيسية التي كانت تتداول التجارة معروفة نسبيا، فالطريق الغربي القديم سجلماسة حتى درعة نحو ولاته والنيجر ومالي قد وضح في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي من خلال رحلات ابن بطوطة ومما يزيد في أهمية تواصل النشاط التجاري، إن فضل الله العمري يشير إلى أن هذا الطريق الغربي كان يمر بتبلبالة وولاته(67).

ولما كانت هذه المدينة تعيش على المبادلات التجارية مع المغرب والصحراء الكبرى لا سيما وأنها وليدة الفترة المرابطية نشأت وتطورت فيها فلا شك أن السلع الرئيسية التي تنقلها القوافل إلى السودان الغربي تشمل الحبوب والتمور والأقمشة والمصنوعات المعدنية والجلدية وصنوف من الزجاج والخزف والأصداف والخواتم والقطران، والملح الذي كان السودان في أمس الحاجة إليه كما يتضح من قول ابن حوقل في هذا الشأن: «وحاجة ملوك أودغست من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به بلغ الحمل الملح في دواخل السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلثمائة دينار»(68).

وكان التجار من الجانبين يخوضون رمال الصحراء في قوافل منتظمة يعبرونها باوقار البضائع الثقيلة وأحمال المتاع الجمة وكان هذا الملح يستخرج من مناجم تغازي في الشمال ويحمله التجار المغاربة في طريقهم إلى بلاد السودان وأهم التجار الذين تعاملوا مع غانة هم تجار سجلماسة، يقول الحموي: «وأهل هذه المدينة أي سجلماسة من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها(69). ويقول في كتابه المهاري(70): «إن الجوع المستمر الذي يشعر به سكان الصحراء هو الذي غدى بتارته من أقدم التيارات التجارية ولا يزال مستمرا حتى الآن». فالملح إلى جانب كونه مادة ضرورية للغذاء غير قابلة للفساد ويمكن نقلها بسهولة يمثل عملية صعبة أو كما قال برنفوس: «معيار الذهب القابل للتبادل بين جميع المناطق والشعوب الصحراوية ومع ذلك فهو ذهب وعملة دولية متداولة للتجارة(71)» هذا فضلا على أن الحاجة الفسيولوجية للملح لم تتغير في إفريقيا السوداء(72).

يقول دافيد سوف: «تقع غانة بين مناجم الملح بالذهب في الجنوب(73)» وعن كيفية تعامل وتبادل الملح بالذهب بين السودان والمغرب يشرحها الغرناطي في العبارة التالية(74): «يحمل إليها حجارة الملح على الجمال من الملح المعدني، فيخرجون من بلد يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون في رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجمال في القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور فإذا وصلوا غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب وربما باعوا وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار أو قلتهم». والأخشاب والعطور وتشمل الورود المجففة وعصارة الزهر والخزامى وفي ضوء ما سبق واستنادا إلى طبيعة المنطقة الصحراوية التي ينبت فيها مدينة تبلبالة، وبحكم المنتوجات الزراعية التي اشتهرت بها يمكن القول أن أهم السلع المصدرة إلى بلاد السودان كانت تتمثل في الحبوب والتمور والتين والجلود. أما صادرات السودان إلى المغرب وكذلك (تبلبالة) فكانت متنوعة وزادت أصنافها وأحجامها زيادة ملحوظة(75).

ولعل أهم السلع التي يجلبها أهل تبلبالة من السودان الغربي نذكر: الذهب كان يأتي في مقدمة الصادرات السودانية من حيث القيمة ولتزايد الطلب عليه، وقد أكد أغلب المؤرخون أن ذهب السودان كان يغطي احتياجات بلدان المغرب والأقطار الأوربية كما أنه كان يغطي وحده أثمان جميع السلع المجلوبة إلى الجنوب، تبقى أثمان الواردات الأخرى، فائضا في الميزان التجاري(76)، وبخصوص تجارة الذهب يقول(77): «كان السودان أعظم مصدر للذهب إلى عالم البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى، حتى تم كشف أمريكا، وقد سيطر المرابطون ومن بعدهم الموحدون على تجارة الذهب، حيث ظهرت أثارها واضحة فيما ضربوه من نقود(78)». كان الذهب يشحن في أكياس صغيرة على شكل مسحوق أو أوراق مطوية.

أما ريش النعام وبيوضه فقد كان يصدر للمغرب وأوربا حيث يتخذ للزينة ودواب الركوب أو الوسائد وكذلك كان بيض النعام يصدران لاستخدامه في المركبات لعلاج بعض الأمراض الجلدية. التوابل: كالفلفل الأحمر الصغير ازدهرت أسواق تبلبالة، وزدات معروضاتها تبعا للتوسع التجاري مع المغرب والسودان وكانت هذه المدينة هي عاصمة للتجارة الداخلية ومركز تبادل تجاري خارجي ومن المحتمل جدا وهذا طبقا لما ذكره حسن الوزان من أهل سكان تبلبالة في عهد المرابطين والموحدين من التجار الذين يعقدون الصفقات مع تجار المغرب أو السودان كانوا يستعينون بالتراجمة لتسهيل التفاهم بين رجال القبائل السوداء والتجار المغاربة وكان هؤلاء التراجمة يجلسون في دكاكين التجار مع السماسرة وكان من آثار هذه التجارة المغربية السودانية أن نشأ أسلوب لديها لتسهيل العلاقات المالية بحيث توفر وسائل للدفع مأمونة من الضياع بعيدة عن اللصوص ولعبت السفاتح والصكوك دورا مهما في المعاملات فالسفتجة خطاب تذكر فيها قيمة معينة من المال قابل لأن يصرف في أي مكان من عملاء وجهابذة الشخص الذي حرر السفتجة.

أما الصك فهو عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالي له أجل معين، وقد ذكر ابن حوقل أنه رأى بأودغست صكا باثنتين وأربعين ألف دينار بدين على محمد بن سعدون من أهل سجلماسة لرجل من أهلها وقد شهد عليه العدول(79) ويستطرد ابن حقول مستغربا «ما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبيها ولا نظيرا»(80).

هذا وما يلاحظ أن كتب الطبقات والسير توفر مباحث ومعلومات عن تجارة القوافل واتصال أهل المغرب ببلاد السودان منذ وقت مبكر ففي «كتاب المعيار المعرب للونشريسي» مثلا فتويان للفقيه القيرواني القابسي (403هـ/1012م) فيها دلالة قاطعة

على قيام تبادل تجاري منذ أواخر القرن العاشر الميلادي بين إفريقيا وبلاد السودان التي كان ما يزال معظم سكانها من الوثنيين وتعالج الفتوى الأولى موضوع عقد قراض تم في القيروان مع شخص توجه إلى تادمكة ومنها إلى غانة وأودع حيث تزوج ورزق أطفالا وغاب عن موطنه أحد عشر سنة وكان عليه دين في بلده وبعد وفاته باع القاضي ممتلكاته فتقدم صاحب القراض يطالب بحقه كدائن. وتدور الفتوى الثانية حول نزاع بشأن ميراث لتاجر من إفريقيا توفي في بلاد السودان دون أن يترك وصية(81). وليس من بين أيدينا ما يؤكد أو ينفي أن أهل تبلبالة فرضوا رسوما جمركية على السلع الداخلية والخارجة منها.

وخلاصة القول، أن موضوع العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان خلال فترة العصر الوسيط، مازال يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة المتأنية التي قد تكشف النقاب عن جوانب جديدة في تاريخ هذه المنطقة.

الهوامش:

(1) – محمد الشريف، «ابن بطوطة وأزمة التجارة الصحراوية في القرن 14 الميلادي ضمن نصوص جديدة ودراسات في تاريخ المغرب الإسلامي»، تطوان، مطبعة الحداد يوسف إخوان، 1996، ص 77-91.

(2) – انظر: Mauny R., "Une route préhistorique à travers le sahara occidental", Bull de Institut français d'Afrique noire, 1947, pp. 341-357.

(3) – د. محمد الغربي، «بداية الحكم المغربي في السودان»، ط. مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982، ص26.

(4) – انظر: Mauny R., "Actes des congrès panafricains de préhistoire", Me session-Alger, 1952, Paris, pp. 74-76.

(5) – انظر: Mauny R., "Essai sur l'histoire des métaux en Afrique occidental", in bull de I.F.A.N., no 2, 1952, pp. 545-595.

(6) – انظر: Desonges Jehans, "Remarque critique sur l'hypothèse d'une importation d'or africain dans le monde phanicopumiuqée, in Acte du deuxième congrès international d'étude des cultures de la Méditerranée occidentale SNED, Alger, 1978, pp. 52-58.

(7) – انظر: Leitenent Zieglers, "Trouvaille de deux monnaies romaines" in Tibucan, Alger, série archéologie eptgraphie t.II, 2ème semestre 1954, pp. 476-477.

(8) – انظر محمد الشريف، ابن بطوطة وأزمة التجارة، ص 80.

(9) – انظر: Devisse J., "Approximations quantitatives qualitatives valeurs variables et d'étude des traversées sahariennes", in Relaciones de la peninsula ibéricaconel Maghreb, M. Garcia Arcenol et M.J. Viguera siglos XIII-XVI, éd. Madrid, 1986, p. 186.

(10) – انظر: Mauny R. "Tableau géographique de l'ouest Africain au Moyen Age d'après les sources écrits. La tradition, l'Archéologie, Dakar, 1961, pp. 426-437.

(11) – محمد الشريف، المرجع السابق، ص 80.

(12) – انظر: Devisse J., "Route de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la méditeranée, in essai sur le commerce Africain médieval du XI au XV siècle", Revue d'histoire économique et sociale, 1, no 55-56, 1972, pp. 49-54.

(13) – انظر: Lewicki Tedensg, "Traits d'histoire du commerce transaharien marchands et missionnaires IBADITES en Soudan occidental et contrôle.

(14) – كان هذا الطريق ينطلق من مصر أوفزان، عند جامينا على بحيرة تشاد أو عند كوكيا غرب غاو – 610.

(15) – ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1963، ص 65.

(16) – يبدأ هذا المحور عند سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى مارا بتغارة وينتهي في أودغست عند الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى.

(17) – يبدأ المحور الشرقي من إفريقيا أو تونس أو قسنطينة، ورقلة وتتخذ مسالكها كلها قبل وصوله إلى البلاد تيكوراين لضرورة التموين بمياه الآبار في أطراف الواحات المستقرة صخور صلبة متراصة من الشمال إلى الجنوب.

(18) – انظر: P.Soleillet, "Voyage dans le Sahara central", B.S.G. Dyon, p. 55.

(19) – محمز الشريف، المرجع السابق، ص 81.

(20) – هاشم العلوي القاسي، «أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا في العصور الوسطى» (استحضار أم استشراق).

(21) – عز الدين أحمد موسى، «النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري»، دار الشروق، ط1، 1983، ص 163.

(22) – محمد القبلي، «ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية ببلاد المغرب» ضمن كتاب: مراجعات المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ط. دار تبقال، دار البيضاء، 1987، ص 15.

(23) – انظر لمزيد من الاطلاع: Kably Mohamed,"Société et religion au Maroc à la fin du moye-âge", Paris, 1986, pp. 95-96.

(24) – محمد الشريف، المرجع السابق، ص 82.

(25) – راجع: Gihard P., "Les Almoravides" in monde musulman médiéval x-xv siècle t.1, Nouvelle clio-presses universitaires de France, 1995, pp. 151-15.

(26) – عباس ابراهيم المراكشي، «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمان من الأعلام» الطبعة الجديدة، فاس، ج1، ص 113 وقع ظهور المرابطين في إفريقيا الغربية، سيطروا على النظام الغائب في التجارة الذهبية.

(27) – Devisse J."Route de commerce et échanges en Afrique Occidentale", in revue d'histoire écono. et sociale, 1972, p. 55.

(28) – Kably Mohamed, "Société..", op. cit., p. 96.

(29) – محمد الغربي، «بداية الحكم المغربي في السودان الغربي»، ص 14.

(30) – المهدي البرجالي، «صحراؤنا»، العدد 18، شهر أوت 1968، الرباط، نقلا عن: محمد الغربي، المرجع السابق، ص 14.

(31) – نص الرسالة: «نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان، نتفق على السيرة المرضية ونتآلف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوزام الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجوار لا يعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده وتردد

الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ولو شئنا لاحتبسنا من جهتنا من أهل تلك الناحية، ولكننا لا نستوصب فعله ولا ينبغي أن ننهي على خلق ونأتي مثله، والسلام». انظر عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 16.

(32) – محمد الغربي، المرجع السابق، ص 46.

(33) – ابن صاحب الصلاة «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوراثين»، تحقيق عبد الهادي التازي، ط. دار الأندلس، بيروت 1964، ص 1-44.

(34) – ابن خلدون، «كتاب العبر»، ج7، ط. دارالكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1959، ص 118-119. كان سكانها «أي تمنطيت» من بني يالدس وغيرهم من برارة عبد الواد مصاب بني مرين، عرب المعقل، عند نهاية عصرالموحدين يمتلكون بعض أجنحتها من النخيل يسكنونها في فصل الشتاء.

(35) – محمد الشريف، المرجع السابق، ص 82.

(36) – Dufou ch. E., "Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe marine musulmane", Congrès d'histoire et de civilisation chrétienne et du Maghrb, t.1, Tunis, 1979, pp. 169-192.

(37) – ومن أجل التنافس والتسابق على عصب هذه التجارة، يفهم الصراع المرير الذي بين المرينيين والزيانيين حول مدينة سجلماسة كما تسفر محاولات بني مرين أيضا الهادفة إلى ضم المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان وكذلك محاولات السيطرة على إفريقيا (انظر: محمد الشريف، المرجع السابق، ص 83-98.

(38) – محمد الغربي، المرجع السابق، ص 49.

(39) – انظر: Bachio sanni Mohamed, "Recherches sur les structures des occidentaux du XII au XIVI siècle et leur relation avec le bassin méditérranéen" . Thèse du 3è cycle Université de Toulouse, Le Miral, 1985, p. 409.

(40) – Devisse J., "Route de commerce", op. cit., pp. 359-389.

(41) – Dufourca Ch., "L'Espagne catalane, et le Maghreb au XIII et XIV siècle, Paris, 1966, p. 311.

(42) – Coudrays, "Relations de Tlemcen avec le Soudan", in bull de la société de géographie d'Alger, 2ème année, p. 198.

(43) – Dhina A., "Le royaume abdelouadid, quelques aspects de sa vie économique, Majallat ettarikh, no 6, Alger, 1978, p. 12.

(44) – يقول المقري: «ثم اشتهرت دريته على ما ذكر من طبقتهم بالتجارة طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجارة واتخذ طبلا للرحيل وراية تقدم عن المسير وكان عدد الذين أخذهم أبو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو ما يملكوه على سواء بينهم والاعتدال، فكان أبو بكر ومحمد وهما شقيقان الكبير بسجلماسة وعبد الواحد وعلي هما شقيقاهم الصغير بايولاتن فاتخذوا هذه الأقطار الحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الماء وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والقير والسلجماسة الميزان يعرفها بقدر الخسران والبرجحان ويكاتبها بأموال التجار وأخبار البلدان»، نفح الطيب، ج 2، ص 132.

(45) – أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين وبني مرين، الجزائر، 1982.

(46) – Mauny R., "Les Juifs de l'Afrique noire, Dakar, 1949.

(47) – أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، ط. دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 144

(48) – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. تونيبوع أوبسالة 1983، ص 81.

(49) – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط. بولاق، ج 9، ص 259.

(50) – حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين (صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، ط. دار الفكر العربي، ص 134.

(51) – الحلل الموشية في الأخبار المركشية، ط. الدار البيضاء، 1954، ص 12.

(52) – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 81. انظر: De La Chapelle, "Esquisse d'une histoire du Sahara occidental", in Héspéris, T. II, 1930, p. 63.

(53) – حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 135.

(54) – De La Chapelle, op.cit., pp. 51-58.

(55) – Ibid., p. 60.

(56) – Ibid., p. 58.

(57) – Ibid., pp. 57-58.

(58) – حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 214.

(59) – الحلل الموشية، ص 21.

(60) – حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 228.

(61) – De la Chapelle, op. cit., pp. 62-63.

(62) – Devisse J., "Route du commerce", op. cit., pp. 63-64.

(63) – Devirdum G., "Un voyage de Marrakech à Tombouctou", en 1804-1805, p. 36.

(64) – يشمل مصطلح «السودان الغربي» أو غرب إفريقيا المنطقة الفسيحة التي تمتد من المحيط الأطلسي غربا حتى السودان، وادي النيل شرقا، وبين نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب وهو نفس المفهوم الجغرافي الذي عرفه الرحالة الجغرافيون المسلمون في العصور الوسطى باسم «بلاد السودان» وكان في الحقيقة يطلقون اسم بلاد السودان على هذه المناطق التي ذكرناها. د. حسين أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ط. دار النهضة العربية، القاهرة، 1963، ج1، ص 820.

(65) – القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الخامس، ط. الأميرية 1915، خصص الجزء الكبير من هذا المؤلف، المغرب، الأندلس والصحراء وغرب إفريقيا.

(66) – حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد صبحي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 128.

(67) – أسماء هذه القصور هي شرايعية وزكرى ومخلوف.

(68) – لمزيد من التفاصيل عن أسماء القبائل العربية وتاريخ انتشارها بهذه المناطق، راجع: أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب، ص 324 وما بعدها.

(69) – حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص 32.

(70) – نفسه، ص 54.

(71) – نذكر على سبيل المثال لسان الدين بن الخطيب في مؤلفه المعروف باسم «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام وينجز ذلك من شجون الكلام»، تحقيق وتعليق د. أحمد مختار العبادي، أحمد ابراهيم الكتاني، توزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.

– حسن الوزان، وصف افريقيا.

Devirdum G. "Un voyage de Marrakech à Tombouctou", 1804-1805. –
2, 1952, B.L. ais Sah. T. 3 no –
De La chapelle, Héspéris, t.II, 1930. –

(72) – كان لموقع تبلبالة على حدود الصحراء الجنوبية، قد جعلها حلقة اتصال بين الشمال والجنوب، كما أن تحكمها في طرق القوافل المؤدية إلى السودان الغربي، أصبحت سوق للتجارة الصحراوية وقد استقر بها عدد كبير من التجار، ونتيجة لذلك تحكم أعمالها في التجارة السودانية وأهمها الذهب والرقيق.

(73) – حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 129.

Devisse J., "Route du commerce et échanges en Afrique", p. 372. – (74)

(75) – ابن حوقل، صورة الأرض، ص 98.

(76) – ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط. مصر، 1906، ج3، ص 538.

(77) – انر لمزيد من الاطلاع على موضوع الملح: Monoa, Théodore, Méhares, Exploration du Sahara, Paris, éd. 1937.

(78) – انظرعن هذا الموضوع: Manoa, Mosta, "Du voyage à la cote occidentale d'Afrique, 14551457, éd. Cher les Schefer, Paris, 1895.

Davidson B., All. Africaredis couvered, London. – (79)

(80) – الغرناطي، كتاب تحفة الألباب، نشر فراد Ferrad، باريس، 1925، ص 41-42.

(81) – محمد الغربي، المرجع السابق، ص 450.

(82) – انظر: Assoeit Clerci A., Histoire des peuples noires.

(83) – راجع: Mauny R., Gravures peintures et inscriptions rupestres de l'ouest Africain, Devidson, op. cit., p. 83.

Devisse J., op. cit., p. 72. – (84)

(85) – ابن حوقل، صورة الأرض، ص 42-70.

(86) – نفسه، ص 96، بيروت، بدون تاريخ.

(87) – أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ط. الدار العربية، (الكتاب ليبيا-تونس)، 1984، ص 304.

(88) – بريت (Brett) مايكل، فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتناولان التجارة عبر الصحراء، بحيث قدم في الندوة الخاصة بتجارة القوافل عبر الصحراء التي نظمها مركز بحوث ودراسات بمدينة طرابلس الغرب، شهر أكتوبر، 1979، ص 1-2.

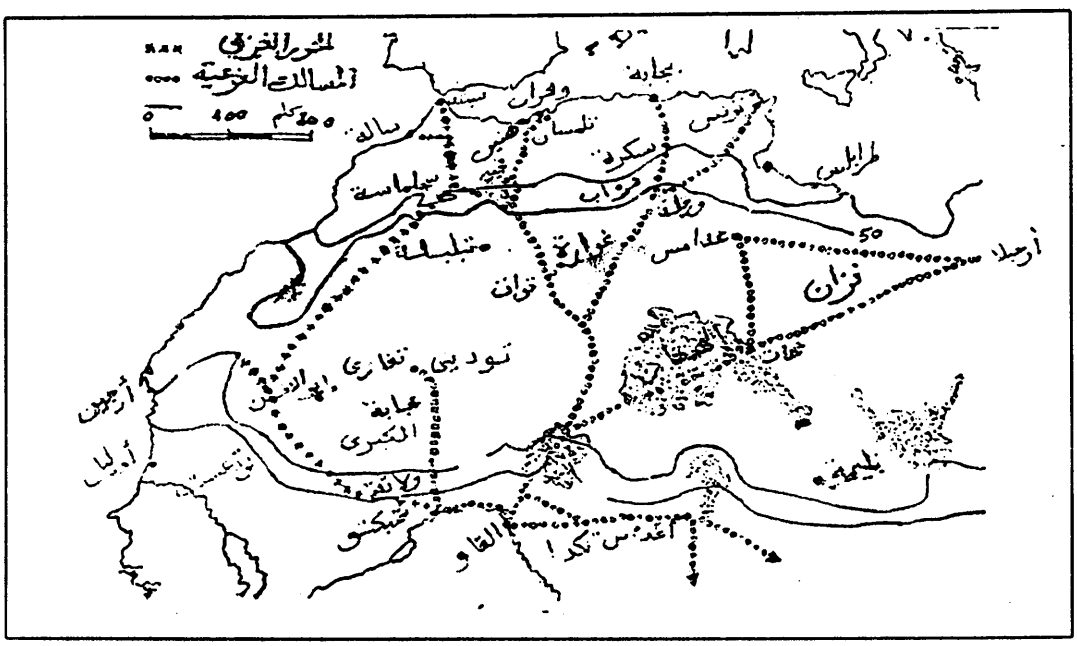

خريطة 1 : شبكة المسالك والطرق بين المغرب والسودان الغربي

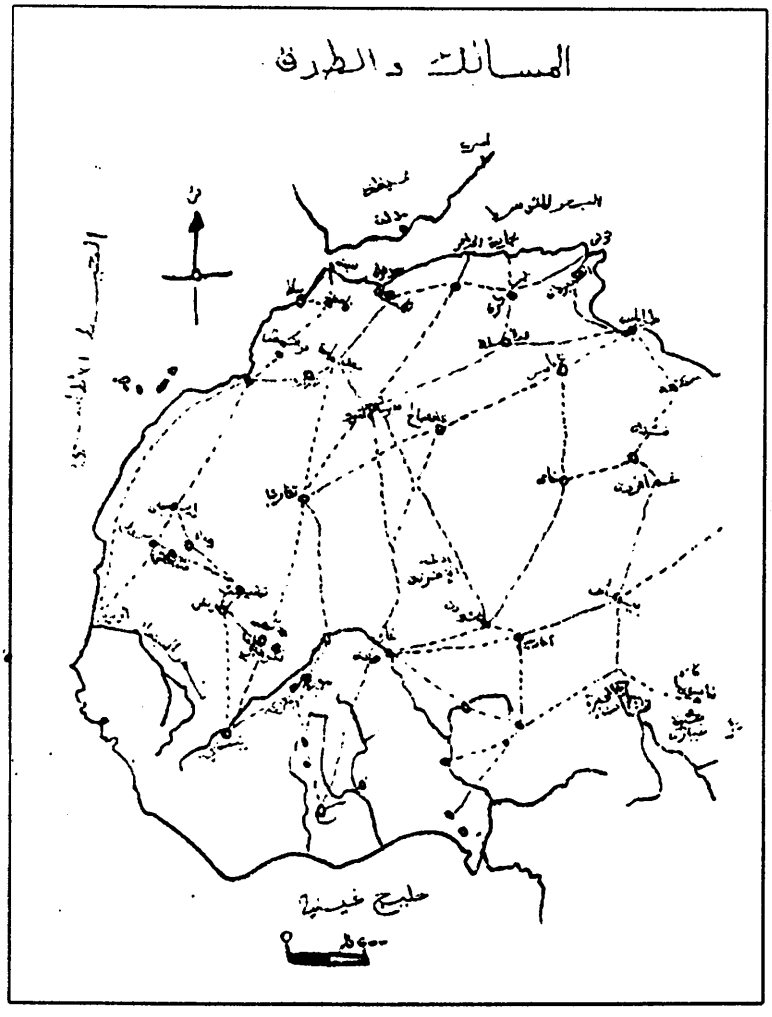

خريطة 2 : تبيّن الطرق التجارية الرئيسية بين المغرب وغرب افريقية.